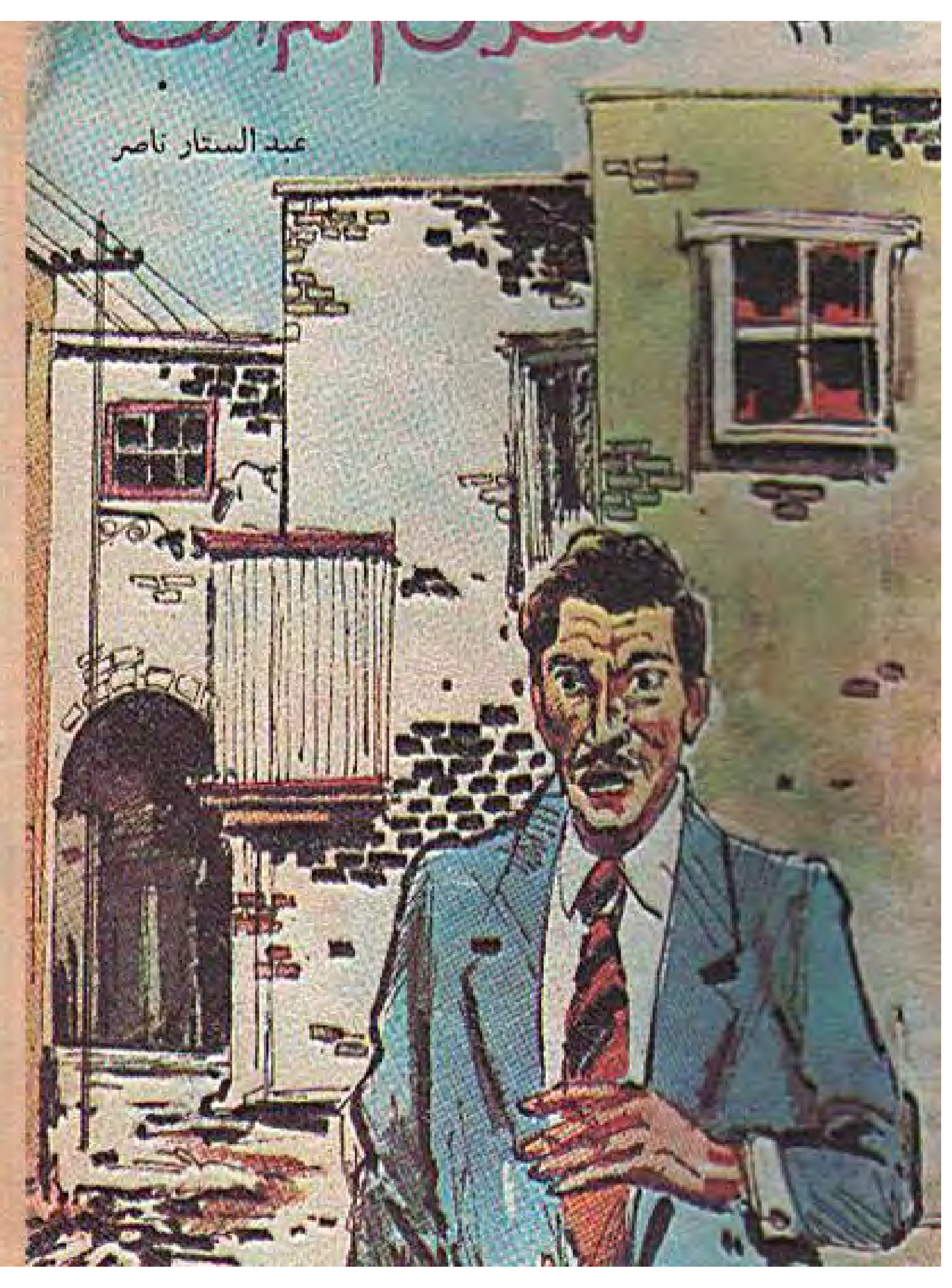


مكتبة المغامرات
٣٢

منزل الغرائب

عبد الستار ناصر



الغلاف والصور الداخلية : فاضل طعمة

التصميم الداخلي : مقبول دهب محمد

دخلت الى بيتي ، في محلة الطاطران القديمة ، بعد منتصف الليل ، وبعد عمل شاق في المدرسة وبيوت الاصدقاء ، حتى يتعلم الصغار المزيد من أسرار اللغة العربية .. لم يكن من قمر في السماء ، كانت المحلة كلها مظلمة ، وكان بيتي اكثرها عتمة ، فقد نسيت ان أترك ضوء غرفتي مضاء كما هي عادتي في بعض الليالي غير المقمرة .

كان الدار يبدو مهجورا او مهدما اذا نظر اليه

الناس من وراء الجدران ، والحقيقة كان بيتي هذا من افقر بيوت المحلة، وكنت انا ايضا من افقرهم رغم انني اعمل ليل نهار ، فقد كنت اعتني بعائلتي البعيدة التي تعيش في الريف وابعث لهم بالنقود كل شهور السنة ٠٠ وكان هذا العمل يزيدني فرحا وسعادة حقا ٠



ـ دخلت البيت بهدوء ، وفتشت عن زر الكهرباء لكنني ـ لاول مرة في حياتي ـ لم اعثر عليه، مددت يدي الى علبة الكبريت استعين بها على حل هذه المشكلة الصغيرة ، لكن العلبة لم تكن في جيوبي ٠٠ واستغربت ما يجري فعلا ، اذ ، كيف يصادفني كل هذا في دقيقة واحدة ؟! نظرت الى قلب الظلام داخل هذا البيت المسكين ، بيتي انا ، وفعلا ، شعرت بالخوف رغم انفي !

تمكنت من دخول غرفتي ، رغم انها بعيدة عن باب المنزل بمسافة ليست قصيرة ، وشعرت بشيء من الراحة ، الان ، سأمد يدي الى زر الكهرباء وتنتهي مشكلتي الصغيرة مع الظلام الدامس ٠٠

لكنني ما ان فعلت هذا ، حتى شعرت ان الدنيا تدور بي بعد ان وقعت أرضا وأنا لا اتذكر غير شيء ثقيل سقط على رأسي وجعلني انام حتى صباح اليوم التالي !



استيقظت في الساعة العاشرة من صباح يوم الاحد ، هذا يعني انني نمت عشر ساعات متصلة دون حلم ولاكابوس ولا ذاكرة ٠٠ نظرت حولي ورأيت نفسي في ثيابي نفسها ، لم يكن من عادتي النوم بهذه الثياب ، رجعت الى ليلة البارحة وتذكرت ماجرى ٠٠ لكن رأسي كان سليما وليس من جرح أو اثر فيه ٠٠٠ اذن كيف سقطت على فراشي ولم استبدل ملابسي ؟

اية حيرة اخذتني ، واي سؤال راح ياكلني ، فتشت البيت شبرا شبرا ، من باب البيت حتى

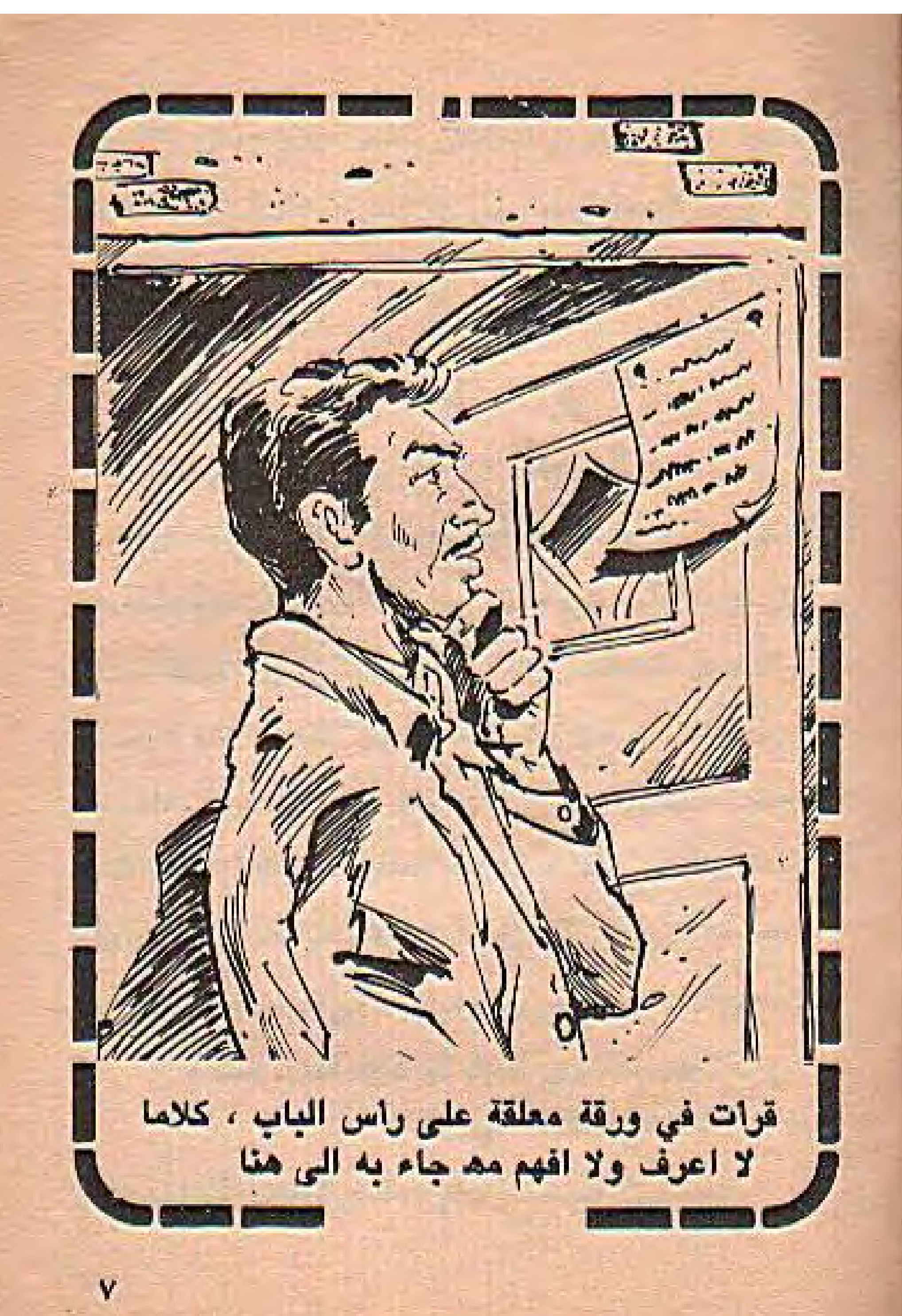
غرفتي ، ومن غرفتي حتى سطح المنزل ، ثم بدأت البحث عن أي أثر أو دليل على دخول شخص غريب ، لكنني ـ أبدا ـ لم أعثر على جواب يساعدني على معرفـــة السر وراء هذا النوم العجيب الذي لم يحدث معـــي ولا مرة واحدة في حياتي كلها

★ ★

شعرت بالفزع حين خرجت من البيت ، في اليوم التالي ، حيث قرأت في ورقة معلقة على رأس الباب كلاما لم أفهم ولم أعرف كيف ومن جاء به الى هنا ؟ لكن الكلمات القليلة تقول لي بصرامة وتهديد وحزم :

ـ « عليـــك يا محمد أن تترك هذا البيت فورا ، سنعطيك فرصة أسبوع واحد وبعدها عليك الســلام ، اذا لم تنفذ أوامرنا • ليس أمامك سوى الموت فقط •• الموت فقـــط » •

ولم يكن في أسفل الورقــة أي اسم أو توقيع أو هامش استدل به على علامة أو شخص أو حتى رمـــز



قرأت في ورقة معلقة على رأس الباب ، كلاما لا أعرف ولا أفهم من جاء به الى هنا

معين ·· من يدري اذا كان الامر مجرد مزاح عابـــر
او ورقة قديمة ليست لي جاءت عن طريق الصدفة او
الرياح او عامل الزبالة ·

★ ★ ★

نظرت الى بيتي ·· هذا المكان الذي أسكن فيــه
منذ وقت طويل زاد على عشرين سنة ، كيف اتركه ؟
بل كيف أعثر على مكان آخر وأنا رجل مزحوم بالمدرسة
والاعمال الخاصة والحياة اليومية التي لاتترك لـــي
فرصة البحث عن مكان اخر أعيش فيه ·· ثم ، كيـف
يعتاد الانسان بسرعة على مكان لم يألفه ولم يعشــن
فيه من قبل ، وأنا لا أعرف العمل بدون هذا البيت الذي
احبه وأعتز به ، لذلك قرأت الورقة عشرات المرات ، ولم
اصدق نفسي ، انهم ينادونني باسمي « محمد » ولاخيار
لي ـ معهم ـ سوى الموت او ترك البيت بسلام !
قلت في ذات نفسي :
ـ انني احلم حتما ، ثم ، ماهو السبب الذي يجعلني

اترك منزلي واهجر غرفتي البسيطة وجيراني والناس والاصدقاء الذين يعرفون مكاني ؟

هل تراها مزحة من صديق ، او نكته ارادها مدرس من المدرسين او قريب من اقربائي ، حتى يعرف قوة اعصابي واحتمالي ؟

لكنني ـ حقا ـ لم استقر على جواب مع نفسي وفكرت الاف المرات : ماذا افعل ، والمدة المتروكة لي ليست الا اسبوعا واحدا ، وبعدها من يدري ماذا سيفعلون بي ؟ لكن من هم هؤلاء وماذا يريدون من بيت قديم جدا كاد يسقط قبل عامين لولا عنايتي به .. اي سر يكمن في هذه الخرابة المهملة التي اسمها بيتي؟لابد ان البعض من البشر قد اصابهم الجنون حتى يفكروا بمكان عتيق كهذا !.

★ ★

مشيت في ازقة محلة « الطاطران » افكر ، وافكر، دون الوصول الى حل او جواب يسعفني في هذه المحنة

التي لم اعش مثلها منذ ولادتي .. وبعد أن تعبت من اللف والدوران حول دروب المحلة كلها ، جلست في مقهى العم « خلف » صديق والدي رحمه الله حين كان يعيش في بغداد منذ عشرين سنة او تزيد ، وقلت للعم خلف ان ياتيني بشاي (ثقيل) حتى تهدا اعصابي .. لكن العم خلف ما أن اعطاني الشاي حتى قال لي :

ـ أستاذ محمد ، أبوك الله يرحمه أوصاني بك قبل موته ، ومن الواجب أن اخبرك بشيء خطير .. حدث معي اليوم والبارحة ، وانا حزين ومرتبك ومهموم بما يجري .

نظرت الى العم (خلف) كانني انظر الى سراب خادع ، ولم أساله عما يريد ، فقد استمر يقول وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال دون أن يستقر راسه في مكان ثابت ، حتى أرعبني حقا ، وهو يقول بهمس عال :

ـ يا ولدي ، اريد منك أن تترك البيت الذي تسكن

فيه الان ، وتبحث عن بيت آخر ، فقد هددوني منذ البارحة ان أقول لك هذا الخبر ، والا فهم سيحرقون المقهى ويكسرون كل ما فيه وربما يقتلون عمك خلف أيضا ..

ثم قال بعينين مرعوبتين :

ـ التهديد وصل حتى مخدتي التي انام عليها ، بل وصل بين طيات ملابسي في الدولاب وثياب زوجتي ام حامد أيضا .. انهم كما يبدو اقوياء ومحتالين جدا وليس من امل لنا معهم أبدا ..

* *

استغربت ما جرى ، كيف وصل التهديد والوعيد الى العم « خلف » بمثل هذه السرعة ؟ بل كيف وصلت أيديهم الخبيثة الى فراشه وملابس زوجته ، ان كل مايدور يوحي ان الدنيا تدور بالعكس أو انها لم تعد تدور أصلا ! .. ولكن هل يوجد ياترى من يعرف بهذا

الموضوع العجيب من أهل محلتي ؟ وهل ثمة تهديد آخر يتعلق بواحد من جيراني أو معارفي ؟

نظرت الى العم خلف صاحب المقهى ، صديق والدي من سالف الزمان ، وقلت له بدهشة واستغراب وذعر لم أستطع اخفاءه عن وجهي مهما حاولت :

ـ من الذي أخبرك بهذا يا عم خلف ؟ أقصد من الذي جاء اليك وهددك بهذه الطريقة البشعة ؟ لقد قرأت كلاما كهذا في بيتي يطلبون مني اخلاء المنزل خلال أسبوع واحد فقط ، وبصراحة ياعم ، لست أدري حقيقة ما يجري خلف ظهورنا من أسرار !

سكت العم خلف وهو ينظر حوله بشيء من الريبة والخوف والحذر ، ومازال يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، وهو يقول :

ـ عندما أغلقت باب المقهى ، وكنت وحدي في الليلة البارحة ،كانت الساعة العاشرة ليلا ، جاءني رجل ملثم يلبس عباءة بيضاء ، وبين أصابعه ورقة صغيرة .. كانت السماء مظلمة وليس من ضوء في

المحلة من اقصاها الى اقصاها ، قال لي : خذ هــذه الورقة يا خلف ثم نفذ كل مافيها من كلام ، انها اوامر لارجوع عنها ، ندري أنك لا تعرف القراءة والكتابة ، سيقرأها لك اي قريب أو صديق .. المهم أن تفهم جيدا ما نريد منك يا ... خلف !

واستمر العم خلف يقول :

- اخذت الورقة توا الى ابني حامد ، ما ان قرأها بصوت مسموع حتى صرخ مرعوبا من كلامها ، وفهمت منه انهم يريدون البيت ، بيتك انت يا استـاذ محمد وبأي ثمن ، وقد اراد ابني حامد أن يخبرك بنفسه ، لكنني قلت له أن يجلس في البيت ولا يتدخل في هذه المصائب!



رغم انفي شعرت بالرهبة ، لانني لا أعرف مـع من اتعامل ، ومن هم هؤلاء الذين يريدون تخريب حياتي وطردي من بيتي بعد هذا العمر الطويل ، ماذا سأفعـل مع هذه الورطة التي نزلت من بيت الشيطان ؟ هل اترك

وفي الساعة العاشرة ليلا ، جاءني رجل ملثم يلبس عباءة بيضاء

البيت ، هذا البيت العزيز على قلبي واحاسيسي ، أم اخبر رجال الشرطة لعلهم يعرفون الحل المناسب ، أم اعرض على من يهددونني مبلغا من المال يعطونه لي تعويضا معقولا عن ترك المنزل حتى اعثر على مكان آخر ؟!

ثم ، فجاة ، قررت البقاء في البيت مهما حدث، لابد انهم يعرفون ما فيه ، ربما كان فيه كنز من كنوز الماضي ، أو بئر نفط من ابار بغداد القديمة أو سبائك ذهب او نقود ، او حتى آثار قديمة قد تساوي آلاف الدنانير ؟ ولكن كيف ساواجه هذه المجموعة من المجرمين الغامضين الذين يبغون طردي من بيتي بلا حق وبلا ضمير وربما دون تعويض أيضا ؟ من يدري .. كل شيء ممكن مادمت اتعامل مع ناس لا أعرف ملامحهم ولم اسمع اصواتهم ولم اجلس معهم أبدا .. انها حيرة بلا حدود !

تركت مقهى العم خلف ، بينما قال لي وانا

أمشي :

ــ ماذا قررت يا أستاذ محمد ؟

ثم قال بصوت عــــال :

ــ لابد أن أعرف جوابك فورا ..

ركض خلفي ، ثم سبقني ، وقال مذعورا :

ــ انهم يريدون الجواب بعد ثلاثة ايام فقط !

قلت بلا تردد :

ــ انا افكر بالبقاء في البيت ، ليس من حق أحــد مهما كان أن يخرجني من داري ، انا ابن هذه المحلــــة واعرف كل شبر فيها ، وحرام أن يطردوني من بـــــين ذكرياتي واحلام شبابي وبعض صباي وطفولتــــي .. أليس كذلك ياعم خلف ؟

صرخت مرة ثانية وأنا أمشي :

ــ أليس كذلك ياعم خلف ؟

اجابني العم خلف بهلـــع وذعـر لـم أره علـى ملامحه من قبل :

ــ وأنا ، الا تفكر بي ؟ ماذا افعل يا أستاذ محمد يا ولدي ؟ انا اب وعندي خمسة اطفال ، ولست املـك غير هذه المقهى ، والمفروض أن تكون الى جانبي وليس ضدي !

قلت له بهدوء ، أحاول أن أخفف عنه اضطرابــه وخوفه :

ــ اهدأ ياعم خلف ، سأحرس لك المقهى بنفسي ..

ثم وقفت قليلا وقلت له بحب حقيقي :

ــ سأفكر في حل معقول لهذه المشكلة الغريبة ، اطمئن ، مازال في الوقت متسع للتفكير .. هم سيأتون اليك بعد ثلاثة أيام وأنا سأعطيك الجواب غدا ..

مسني هاجس غريب وأنا اكمل كلامي :

ــ اذا جاء واحد منهم ياعم خلف ، اخبـــره ان الجواب سيأتي في الوقت المناسب !

* *

رجعت الى بيتي .. أشعر بالشلل في رأســـي

ومسامات جسمي ، حقا لقد أرهقني التفكير الدائـــم الرهيب ·· فهل ينفعني اخبار الشرطة في منطقتي ؟ ربما قتلوني اذا عرفوا وشايتي بهم ، أو اذا رأونـــي محتميا برجال الشرطة ·· المهم ، كيف التخلص منهم « غدا » صباحا ، وقبل أن يجـــيء " .ـــــاء " !



٢

في داخل البيت ، نزعت ملابسي ، ورفعـــت بيجامتي ، لكنني قبل ان البسها فوق جلدي ، رأيتها مبللة بالدم !

اقتربت من هذه البيجامة اللعينة ، لم يكن الامر كابوسا او وهما او سرابا ، او حتى خيالا عابرا ·· انها مبللة باللون الاحمر فعلا ، وفي جيبها ورقة اخرى

مسكتها باصابعي ، وقرات فيها :

ـ اسمع يا محمد ، موعدنا معك يقترب ، هـل تفهم ؟ اذا اخبرت الشرطة سترى نفسك غارقا في الدم ، غارقا في الدم قبل وصولك مركز الشرطة ، اننا نراقبك جيدا ، سنعطيك الف دينار حين تترك البيت عفوا سنعطيك ثلاثة الاف دينار ، وهذا مبلغ محترم بالنسبة لك ، على اية حال ، بيجامتك نظيفة من الدم، ان ما تراه عليها مجرد صبغ أحمر ·· لا تخف ،انه صبغ احمر ·

★ ★

مددت يدي الى البيجامة ، ورغم شعوري بالقرف والضجر والخوف ، تاكدت ان اللون الاحمر لم يكن غير صبغ أحمر عادي يشبه الدم ·· ! ورغم هذا نمت بـلا بيجامة حتى الصباح ، وانا أنقلب من فكرة الى فكرة ومن خطة صعبة الى خطة حب ثانية ، حتى تمنيت من الله أن يرحمني من هذا الوسواس الرهيب ·· ونمت

بعد مرور ثلاث ساعات من الارهاق القاتل !

في الصباح ، فكرت أن أفتش البيت ، وأحفر في المكان الذي اشك فيه ، فربما عثرت على « الشيء » الذي يريدون أو الكنز الذي يبحثون عنه ، لهذا تركت المدرسة نهارا كاملا عساني اعوض هذا النهار بشيء اغلى وأخطر ·· اقتربت من كل شبر وزاوية في المنزل ، لكنني لم اشك في أي ممر ولا أية زاوية ولا اية طابوقة في طول وعرض المنزل ·· عدا مكان صغير قرب غرفة مهملة ، رأيت في هذا المكان آجرة غير ثابتة ، تهتز تحت يدي بسهولة ، رفعتها بالفاس ، ثم اخذت احفرتحتها ، ثم احفر حولها ، وبعد ساعتين من الارهاق والحفر ، لم تخرج من باطن الارض سوى عقرب صفراء ناعمة جدا وحفنة من الدود لا ادري كيف تعيش تحت هذه الطبقات القاسية من التراب والطابوق والجص ؟··

كل اتعابي تذهب أدراج الرياح

★ ★

صعدت الى سطح المنزل ، ومسكت بأصابعي العشرة أجزاء كثيرة من السطح ، ولكن ، دون جدوى، كل شيء في هذا البيت عادي جدا ، ماذا جرى في عقول هؤلاء الناس الذين يريدون طردي من البيت ؟ انهم مجانين دون أي شك ، فهو بيت عتيق ومهدم ، وليس من ميزة فيتجعله مختلفا عن بقية البيوت٠٠ حسنا، ربما لم يكن هذا هو السبب ٠٠ لماذا افترض ان السبب يكمن في المنزل نفسه ، ربما يريدون طردي لانهم يكرهوني او يريدون شراء البيت لانه في وسط المدينة وفي حي شعبي مشهور ، ان محلة مثل «الطاطران» تعتبر غالية جدا لانها قرب شارع الكفاح، وهذاالشارع في قلب مدينة بغداد فعلا ٠٠ ربما كانوا يبحثون عن ارض يقيمون عليها مصنعا او دكاكين تجارية او غير ذلك من أمور لاتخطر على بال أمثالي من الناس البسطاء ؟!

* *

ارهقني التفكير في هذه القضية ، وتمنيت ان تنتهي مشكلتي بأسرع وقت ممكن ، ان كثرة التفكير والحذر الدائم والترقب المستمر يرهقون الراس ويجعلون شرايين الجسد في حال سيء ، ماذا افعل اذن ؟

ذهبت الى مقهى المحلة ، ولم اجد العم «خلف» ٠٠ كان ابنه «حامد» هو الذي يخدم الزبائن ، ويقدم الشاي والنارجيلة لهم ، وحامد شاب فيحدودالعشرين من العمر ، لكنه صارم وعنيد ولايشبه اباه في أي شيء، قلت في ذات نفسي :

ـ ربما كان العم خلف مريضا او ذهب ليشتري السكر والشاي ، ارجو ان يكون بخير ، هذا الرجل الطيب ٠

لكنني ما ان جلست على تخت المقهى حتى جاءني ابنه «حامد» وقال لي :

ـ هل اخبرك ابي بما جرى ؟

فزعت من طريقة كلامه ، وقلت :

ـ نعم ، لقد حدثني عن تهديدهم اذا لم اتــــرك المنزل ·· هل من شيء اخر يا حامد ؟

لكن حامد قال بذعر كبير :

ـ انا أتكلم عما جرى قبل ساعات قليلة يا أستاذ محمــــد .

قفزت من مكاني هلعا ، وسألت :

ـ ماذا جرى يا حامد ؟ اخبرني بسرعة ··

أخذني حتى اخر المقهى وقال هامسا :

ـ أحدهم ضرب أبي لانه ذهب الى الشرطة ، ضربه قبل أن يدخل المركز ، وقد جرحه عند رقبته بشــــيء حاد ·· لا أدري كيف عرف المجرمين ان ابي في طريقه الى هناك !

صرخت دون ارادتي ، كنت قد نسيت كل شيء وانا اقول :

ـ ولماذا ذهبالى الشرطة؟ كان عليه أن يصغي الى كلامي قبل أن يفعل اي شيء ·· انها عصابة نكيــة



ما ان جلست على تخت المقهى حتى جائني ابنه « حامد » وقال ـ هل اخبرك ابي بما جرى

ويجب أن نكون في مستوى ذكائهم او نستجيب لما يرغبون .. اين هو الان ، وكيف صحته ؟

قال حامد وعلى ملامحه بعض الغضب :

ـ والدي في البيت ، نائم منذ ساعات على فراش المرض ، لكن لا تذهب اليه يا أستاذ محمد ، انه غاضب على نفسه وعليك أيضا ، لاتزعل منه ، فقد قال ان هذه « مصيبة » نزلت علينا من السماء .

شعرت بالحقد على هذه « العصابة » التي تريد اللهو بأعصابنا وتدمير معنوياتنا ، والمشكلة اننا جميعا ـ العم خلف وابنه وانا ـ لانعرف ماذا وراء هذا التصرف العجيب !؟

★ ★

لا ادري لماذا بدأت ـ على حين غفلة ـ اشك في العم خلف نفسه !

ربما يريد البيت بسبب قربه من المقهى ، ربما يريد أن يجعله مخزنا للشاي والسكر واستكانات الشاي

والنارجيلة وغيرها من لوازم عمله .. لكنني سرعان ماضحكت من نفسي ومن افكاري السيئة ، كيف يأخذني الشك ضد العم خلف المسكين ؟ كيف يصير مخي هـذا ضد رجل مثل خلف ، وهو الذي كان مثل أبي طوال حياتي ؟ ندمت على افكاري فعلا وانكسرت خجلا وتمنيت أن أعتذر منه رغم انه لايدري كيف كنت أفكر !

– أعوذ بالله من هذه الافكار !

في الليلة التي سبقت آخر يوم من التهديد الرهيب، احترقت مقهى العم خلف ، وصعقني هذا الخبر المرعب، صعقت فعلا من هول المفاجأة ، مع انني كنت أراقب المقهى ليل نهار ، وكنت أخرج في آخر الليل مسلحا بسكين كبير ، لكنني لم أشاهد أي « بشري » يمر من هناك .. لابد انهم تسللوا بعد الثالثة صباحا ..

ذهبت الى العم خلف في بيته ، أحزنني منظر أبنائه الصغار وهم يجلسون حوله كمن ينتظر شيئا

غامضا لايعرفه احد ، ورغم ان العم خلف أراد أن يطردني أو يهملني تماما ، لكنني احتملت غضبه وردود فعله العنيفة ولم أرد على أعصابه التالفة المحروقة .. كنتأقول – مع نفسي – انهعلى حقفيكل ما يفعله

قلت له وأنا اكاد ابكي :

– لا أعرف هل اعتذر ام انكرلكبانهم سيقتلوني؟ على أية حال أنا أملك مائة وعشرين دينارا ياعم خلف خذها مني ، ارجوك ، لعلك تستفيد منها في اعادة ما خسرت ، أعرف انها قليلة جدا لكنها بداية حسنة ياعم خلف .

قال حامد بصوت منكسر :

– شكرا يا أستاذ ، ولكن ماذا قررت أن تفعل ؟

لم أجب عليه ، فقد سبقني العم خلف وقال :

– اسكت انت يا حامد ، ليس هذا وقت أسئلة .

نظرت الى عينيه ، كانت الدموع صادقة وحزينة جدا ، لم أعرف ماذا أفعل في تلك الساعة غير السكوت،

لكنني سمعت العم خلف يقول لي وهو يحرك ظهره الى أمام ويقترب مني :

ـ لست أدري ماذا يريدون منك ومن هذا البيت المهدم العتيق الذي لايساوي فلسين ، لابد ان السر اكبر مما نتصور .. في حياتي كلها يا استاذ محمد لم اسمع بقصة كهذه ابدا ..

ثم نظر حوله ، والى اولاده وبناته ، واستمر قائلا :

ـ أنت تعيش مشكلة حقيقية يا ولدي ، ولابد أن نكون الى جانبك ، أعتذر منك عما فعلته معك من جفاء ، لم اقصد طردك من داري ، لكن الشيطان ارهقني وعماني منذ احترقت المقهى ، انها مصدر الرزق الوحيد كما تعرف يا استاذ محمد ..



حين رجعت الى منزلي ، قال لي العم خلف :

ـ احترس يا بني من هذه الليلة ، انها ليلة

مشؤومة ، لا اريد ان اسمع اي خبر حزين .. ثم في مكان اخر لئلا ياتون اليك ، انت وحيد وليس من رفيق معك ..

كنت اشعر بالخوف فعلا ، حياتي صارت نهب الشكوك والانتظار ، لكنني ـ وهذا مالم يعرفه العم خلف ولاغيره ـ كنت أستعد لمثل هذه الليلة بكل ما أملك من ذكاء وحيلة .. فقد اشتريت أشياء كثيرة قد أحتاج بعضها ، وقد لا أحتاج البعض الاخر ، ورتبت المنزل طولا وعرضا بحيث يكون مجرد (فخ) لمن يريد الدخول اليه بلا استئذان !

★ ★

دخلت البيت ـ كما في كل مرة منذ التهديد الاول ـ بحذر كبير وهدوء اكبر ، لم يكن من شيء غريب في ممراته وزواياه ، لم يكن من شيء يلفت النظر ، كل شيء كما هو وكما تركته صباحا ، كانت الساعة هي التاسعة مساء، والليل مازال اطول من هدوئي واطمئناني، ولابد

انهم سيأتون بعد منتصف الليل ، من يدري ، ربما فكر البعض منهم بقتلي او تحطيم راسي او كسر ضلوعي ..

ولماذا تراني انتظرهم واهدم نفسي ، لماذا لا ابدأ في تخطيط الشراك التي سينزلقون فيها وارتاح منهم .

★ ★

وضعـــت على امتداد الباب الخشبي الخارجي حفنة من المسامير الحادة ، وكسور زجاج تكفي ايـــة واحدة منها من جرح فيل كبير او حصان او خرتيت .. ورجوت الله ان اتذكرها صباحا لئلا اجرح نفسي ..

ثم جئت بأنبوب مطاطي يتصل مباشرة بحنفيـــة برميل النفط ، كما أحضرت كمية كبيرة من مسحـــــوق الغسيل قرب انبوب النفط ، والمهم انني أطفأت ميزانيـــة الكهرباء لئلا يستخدمون النور في مكان ما من البيت .

وقرب باب غرفتي ، كنت اشتريت « بروجكـتر » يعمل بالبطارية ، قلت هذا سينفعني فورا في الكشـــف عنهم مباشرة ، حقيقة كنت أتمنى أن أعرف هؤلاء الناس



وضعت على امتداد الباب الخشبي الخارجي ، حفنة من المسامير الحادة

الذين يريدون طردي من بيتي واستقراري ونكرياتي ..
ومن جملة الاشياء التي اشتريتها أيضا ، بالونـــات
ـ نفاخات ـ ضخمة تكفي اذا ثقبتها أن تملأ المحلـــة
بالرعب بسبب صوتها العجيب .. وكنت قد وزعتهـــا
هنا وهناك لوقت الحاجة !

شعرت بشيء من الاطمئنان وبعض الراحة ، وأنا
اقفل باب غرفتي بقفل حديدي كبير ، ثم وضعت خـلف
الباب صفيحة فارغة ، حتى اذا تحركت الباب أي حركة
أو لمسها أحد من قريب أو بعيد ، تضرب سطح الصفيحة
فأشعر بالقادم حتى اذا كان قطة أو فأرا أو رياحـــا
عابـــرة ..

وهكذا رميت نفسي على فراشي ، أحاول نسيان
كل شيء حتى يهدأ رأسي من الوسواس الذي أهلكنـي
طوال أسبوع كامل ، سبعة أيام من الانتظار والتعب ..

* *

في منتصف الليل ، ربما بعد منتصف الليـــل

بساعة أو تزيد ، عصفت رياح قوية دون أن تمطر السماء ، استيقظت من النوم ، نظرت من وراء الستائر الى فناء البيت ، كان هناك ضوء خافت في عمق البيت، قلت في ذات نفسي « يا ساتر » ٠٠ كانت غرفتي في الطابق الاول ، اما الضوء فقد تسرب من فناء المنزل الى خصاص نافذتي بوضوح تام ٠

الغريب في أمري ، انني لم أشعر بالخوف ، كأنني أعرف كل ما سيجري بعد قليل ، وهذا ساعدني في السيطرة على أعصابي وأفكاري ، وجعلني افكر بسرعة وقوة وتركيز ، ماذا سأفعل اذا كان عددهم اكبر من كل استعدادي لهم ؟ هل ستكفي أسلحتي البسيطة ، وهل يكفي الزجاج المكسور والمسامير الحادة أو حتى أنبوب النفط ومسحوق الغسيل ، ثم البالونات المنفوخة في اللعب عليهم والتخلص منهم ؟ من يدري !

المهم ، رحت أفتح باب غرفتي بهدوء شديد وحذر اكبر ، وقررت أن أخوض هذه التجربة القاتلة مهما كان

الثمن ، فهم دخلوا بيتي من سطح المنزل ، وهذا – وحده – مالم يخطر على بالي وخيالي مطلقا ٠٠ ولكن ليس هذا أخطر مافي الامر ، سأتدبر امري بمعونة الله، ولكن لابد أن أعرف ماذا يريدون من هذا البيت العتيق المهدم ، وماذا يريدون مني ؟!

* *

خرجت من الغرفة على أصابع قدمي ، ونظرت من أعلى الى حيث كان الضوء يتسرب ، كان هناك ثلاثة رجال في عمر متقارب وشكل متقارب وطول واحد ، او هكذا تخيلتهم لاول مرة ، وكان الضوء قرب رؤوسهم مباشرة واحدهم يلتفت يمينا وشمالا بلا هدوء ولا حتى ثانية واحدة ، بينما كان صاحبيه يحفران في زاوية من المنزل ، يحفران برفش صغير وبشيء من السرعة والذعر ، وربما الفرح أيضا ٠٠ كانوا يتصرفون كأن لا أحد في البيت كله ٠٠ واستغربت ما يجري حقا ٠٠ لكنني كنت صبورا وقويا في تلك الساعة ، قلت مع


نفسي :

- لابد من الانتظار بعض الوقت ، حتى أرى ماذا في هذا البيت ، دعهم يتعبون ويحفرون ، ثم أحـــاول السيطرة عليهم ، وأخذ هذا الشيء الذي هددوني من أجله .. وفعلا ، سمعت أحدهم يقول بعد نصف ساعة من الجهد والحفر المتواصل :

- بعد قليل ، علينا أن نفتح الباب على مصراعيه، ستذهب أنت يا « دعبول » وتأتي بالعربة حســـب اتفاقنا ، ننتظرك هنا حتى نسمع الإشارة المتفق عليها، ستذهب من السطح كما جئت ، لانريد أن نفتح بـــاب المنزل الآن ، حتى ترجع العربة ، مفهوم ؟

قال الثاني ، ويبدو انه دعبول :

- مفهوم ياحسون ، ساضرب الباب مرتين ثـــم مرتين أيضا ، العربة كما تعرفون ستكون قرب البيت واذا استيقظ هذا المجنون أو أي أحد من الجيران لابـد من قتله في الحال ، لانريد أن يرانا أي واحد من أهـل

كان هناك ثلاثة رجال في عمر متقارب

هذه المحلة !

★ ★

حسنا ، صرت أعرف اسمين منهم ، دعبول وحسون ، وهذا جيد ، لكن من يدري انها اسماء حقيقية وليست مزيفة ، على اية حال ، صعد « دعبول » حتى أعلى سطح المنزل ، ونقل نفسه بقفزة سريعة واحدة الى الزقاق ، (انهم مدربون على كل الصعوبات والمآزق كما يبدو) ولست أدري هل أستطيع التغلب عليهم ، أم سيقتلوني في هذا الليل الدامس المخيف ؟ ولكن ، لم يكن أمامي – بعد الان – سوى الاعتماد على نفسي فقط .

استمر بقية العصابة في الحفر والتنقيب ، يبدو انهم تاكدوا من وجود الشيء الذي جاءوا لسرقته من بيتي ، والا ، كيف ولماذا بعثوا بواحد منهم ليأتي بالعربة ؟

فكرت أن أبدأ في اللعبة قبل أن يزداد عددهم

ويرجع المجرم الثالث ، لكنني سرعان ماتذكرت كسور الزجاج والمسامير الحادة عند باب البيت ، وانهما حال رجوع (دعبول) سيذهبان ليفتحا له الباب فيجرحان رجليهما ويستيقظ جيراني على صوت صراخهم ،وعندها يساعدني الجميع في التخلص من هؤلاء اللصوص المجرمين ·

لكنني فكرت بشيء آخر ، من يدري انهم قبل خروجهم من البيت ـ ربما ـ سيحاولون التخلص مني او حرقي في المنزل لمسح الدليل على مجيئهم الى هنا أو شد جسمي بحبل متين او ضربي على رأسي ، انهم أشرار ـ حتما ـ ويمكن ان يفعلوا أي شيء ، اذن لابد من اجراء سريع وتفكير أسرع حتى انقذ نفسي من شرورهم ·· لذلك قررت البدأ في (خطتي) وليكن ما يكون !

وقبل أن اقرر البداية ، سمعت حسون يقول للشخص الثالث :

ـ اقترح يابلبل أن نقتل صاحب البيت ، قبل أن يرجع دعبول ، لاننا حين نفتح باب البيت سيكون صوت صريرها قويا جدا وقد يفضحنا هذا الرجل في طول المحلة وعرضها ··

* *

اذن ، كان عقلي قد أرشدني الى الحقيقة ، وقبل أن أسمع رد حسون ، رحت أرش مسحوق الغسيل على امتداد المكان الذي هم فيه ، وكان الظلام يخفي ما فعلت ·· حتى تأكدت ان أرض المنزل صارت مملوءة بل محشوة بهذا المسحوق ، فتحت الانبوب المطاطي الذي يتصل ببرميل النفط ، وفي الوقت نفسه أشعلت ضوء « البروجكتر » في وجوههم حتى أرى ما سيفعلون ·

كانت المفاجأة قد أطارت صوابهم ، وهم يتزحلقون شمالا ويمينا بلا قدرة وبلا ارادة ، سمعت « بلبل » يصرخ في وجه حسون :

ـ اصعد واقتله بسرعة ، سيذهب كل ما فعلناه

سدى .

في تلك اللحظة ، رايت خنجرا يلمع في يد حسون، وهو يصعد نحو مكان الضوء ، بينما نقلت نفسي من مكان الى آخر ورحت أثقب البالونات واحدة بعد الاخرى ، مما نقل الفزع الى قلوبهم ، خاصة وقد استيقظ بعض الجيران ، وصار من الصعب على حسون وبلبل انتظار « دعبول » ..

ذهبا الى باب البيت ، وحين أراد فتحها ليهربا صار الزجاج المكسور والمسامير الحادة تدخل من بين احذيتهم وتمزق شرايين راحة القدم ، لكنهما تمكنا من الخروج رغم كل الامهم ، ورحت وراءهما أصرخ عاليا:

ـ امسكوهم ، هؤلاء المجرمين ، انهم يريدون قتلي ..

* *

لكن العصابة كلها تمكنت من الهروب ، حتى (دعبول) لم يرجع ، ربما رآهم في الطريق وعرف

القصة كاملة ، جاء البعض من جيراني يسالون عما جرى ، لكنني اخفيت عنهم القصة الحقيقية حتى أرى ماذا وجد هؤلاء المجرمين في بيتي .

اسرعت الى مكان الحفرة التي حفرتها العصابة، ورايت صندوقا مستطيلا يبدو عليه ـ الى جانب الزخرفة الجميلة النادرة ـ انه قديم جدا ، كنت اخاف ان افتحه لئلا يظهر منه ماليس في الحسبان ..

حقيقة كنت اخاف الاقتراب من هذا الصندوق الغريب ، شكله يوحي بانه من زمن قديم بعيد جدا ، لانني لم اكن قد رايت صندوقا بهذا الشكل الباذخ الساحر طوال حياتي !

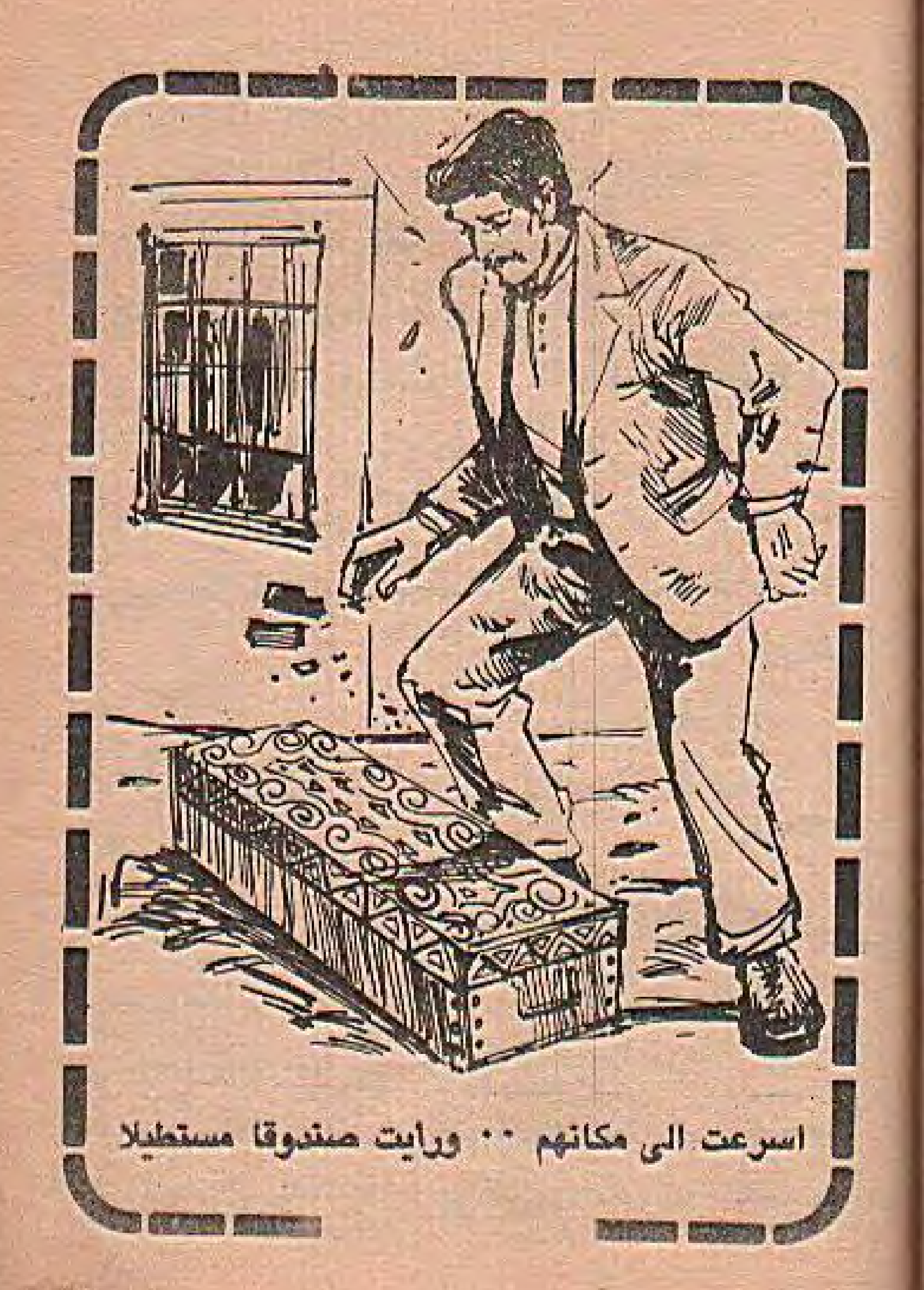
كان حول الصندوق حزام هندسي من المسامير الضخمة ، تشبه تلك المسامير التي تزين بها ابواب البيوت في الماضي ، بيت جدي كان كذلك وايضا بيت الحارس عثمان صديق والدي ، وعدد ليس بالقليل من بيوت اليهود الذين عاشوا في بغداد حتى الحرب

العالمية الثانية .

كان الليل والنجوم البعيدة وبرد الشتاء يضيفون خوفا آخر الى خوفي . فكرت ان أستعين بصديق او قريب على فتح هذا الصندوق ، لكنني طردت هذه الفكرة عن راسي فورا .. من حقي ان اصير غنيا اذا كان الصندوق محشوا بالنقود او الجواهر ، لكنني لابد ان احمي نفسي - قبل كل شيء - من افراد العصابة لانهم لن يتركوني اعيش بسلام مطلقا .. رحت افكر منذ تلك الساعة باشياء كثيرة ، بل كثيرة جدا ، من اين لهؤلاء معرفة هذا الصندوق وما فيه ؟ انه مخبوء تحت طيات الارض ، ولم يكن أي شبر من مكانه محفورا من ذي قبل .

★ ★

كيف اكتشفت هذه العصابة مكان الصندوق دون بقية البيوت وفي هذه المحلة المزدحمة بالسكان ؟ لم أستطع الوصول الى حلول معقولة وممكنة ، ثم قررت


اسرعت الى مكانهم .. ورأيت صندوقا مستطيلا

ـ فجاة ـ أن أحارب خوفي وأعصابي ورحت أكلم نفسي بشيء من الوقاحة والدفع :

ـ من العيب أن تخاف يا محمد ، أنت رجل كامل ومدرس معروف ، هل سيخرج لك عفريت ـ مثلا ـ من هذا الصندوق ؟ حتما لا ، انه صندوق مدفون منذ زمن بعيد ، يبحث عنه أكثر من رجل واحد ، كلهم مستعدون للموت من أجله ، وأنت تمكنت من الضحك عليهـــم وطردهم شر طردة ، لماذا لاتحاول كسر هذا الصندوق ومعرفة الحقيقة ؟

قلت لنفسي بصوت عـال :

ـ افتحه الان ، هيا ، وبسرعة ، افتحه يا محمد ٠

★ ★

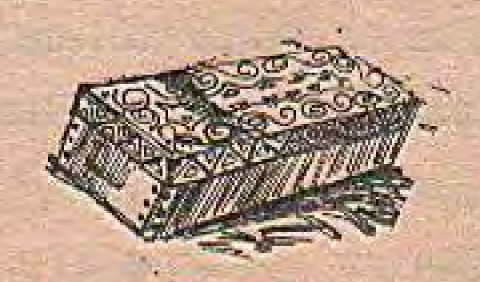
لكن الكلام يبقى مجرد كلام ، أما التنفيذ فهـــو اكبر من كل كلام ، هذا شيء أكيد ، ولابد من نفســـ وأعصاب عنيفة قاسية غاضبة ، حتى أتمكن من كســر الصندوق ورؤية مافيه ، خجلت من نفسي واقتربت من الصندوق ، بل ولمسته بأصابعي ، كان الطين والحشرات

يعبثان بهذا الهيكل الثقيل دون أي تاثير عليه ، انه من خشب يشبه الحديد في متانته وقوته !

نظرت الى الساعة ، كانت الثالثة صباحا ..

ليس من المعقول ان يرجع « دعبول » أو «حسون» أو هذا البلبل المجرم الذي أراد ان يقتلني ، ليس من المعقول رجوعهم الى هذا البيت .. لكنني قررت الانتظار حتى شروق الشمس ، حتى أرى بوضوح ، وحتى يكون الليل قد انكسر رعبه ووسواسه ، وفي الوقت نفسه أبعد نفسي عن الحشرات والزواحف التي بدأت تخرج من باطن الارض .

الصباح قريب جدا ، ولابد من الصبر في مثل هذه الامور المعقدة !



في الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي تسلل اول شعاع من نور النهار ، نظرت الى الصندوق ، انه اطول من متر واحد واعرض قليلا من مترين ، لم اتمكن من اخراجه من الحفرة ، فقد كان اثقل من جسدي مايزيد على مرتين ، انه يحتاج الى قوة ثلاثة رجال فعلا ..

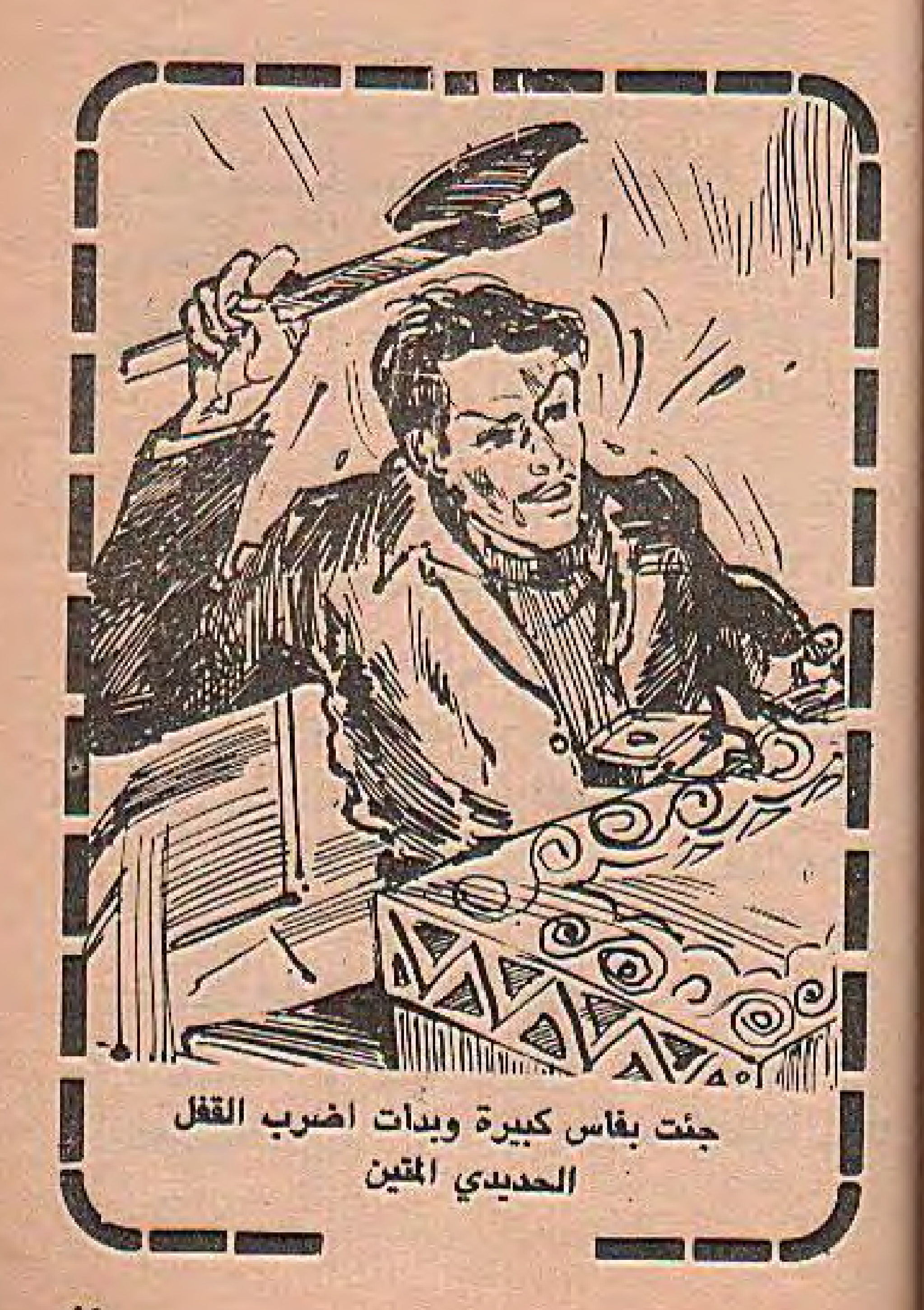
وفكرت ان اكسر الصندوق وهو في الحفرة نفسها ،

جئت بفأس كبيرة وبدأت أضرب القفل الحديدي المتين، لكنني بعد نصف ساعة لم اتمكن من كسر هذا القفـــل العجيب .. ربما كنت متعبا ومرهقا من ليلة البارحة، لكنني ساعثر على طريقة أفتح بها الصندوق اللعـــين هذا وأرتاح من هذا الوسواس الذي كاد يهلكني فعلا.

★ ★

جئت بقضيب منحديدوضعتهبين القفلوفتحتهالعليا، ثم ضغطت بقوة على رأس القضيب ، وانكسر القفـــل فعلا .. لكنني بقيت أمام الصندوق وجها لوجه ، وكانت تلك أصعب المراحل ، ترى ماذا يحتوي من أسرار هـذا الصندوق الضخم الغريب ؟

مددت يدي بشيء من التردد والخوف ، وحاولت رفع الغلاف الخشبي السميك ، لكنني لم أستطع في أول وهلة ، ان تراكم الطين والتراب جعل فتحة الصـــندوق متكلسة تماما ، وكأنها صارت قطعة لاتتجزأ مـــن الصندوق نفسه .



جئت بفأس كبيرة وبدأت أضرب القفل الحديدي المتين

لهذا ذهبت الى المطبخ ، وجئت بسكين حـــادة وقوية ، وبدأت أمسح التراب المترسب في فتحـــة الصندوق ، وبقيت هكذا اكثر من نصف ساعة حتـــى شعرت ان الفتحة صارت طوع يدي ، وانني اذا فتحت الصندوق في هذه اللحظة سوف أرى مابداخله وانتهي من معرفة السر الاول .

★ ★

لكنني في تلك اللحظة سمعت طرقا على الباب .

نعم ، كان طرقا متواصلا على باب بيتي ، ترى ، مـــن يأتيني في ثل هذا الصباح ، بل كان الوقت بين الفجر والصباح ، أقول الحقيقة شعرت بالخوف والحيـــرة معا .. كيف أخفي هذا الصندوق عن العيون حتـــى أرى مافيه ؟

صعدت بسرعة البرق الى الطابق الاول مـــن المنزل ، ونظرت الى الزقاق حتى أرى من الطـــارق .. لكنني سرعان ماضحكت من نفسي ، حين شاهدت بائع

الخبز يأتيني بحصتي (الاسبوعية) من الخبز ، نزلت وفتحت له الباب ، لكنه بادرني بسؤال غريب :

ـ المحلة كلها تسألني عما جرى في منزلك ليلة البارحة ؟ وأنا الوحيد الذي لايعرف ماجرى ..

ثم اكمل كلامه بلؤم لامعنى له وهو يقول :

ـ ماذا اقول لهم يا أستاذ محمد ؟

قلت له بسرعة ، وأنا أغلق الباب :

ـ قل ماتشاء يا نعمان ، فهم يعرفون ان مجموعة من « الحرامية » نزلت على بيتي في آخر الليل .

لكنه قال من وراء الباب :

ـ أستاذ محمد ، انهم يقولون ، انك كنت تصرخ « امسكوهم انهم يريدون قتلي » والحرامي عادة لايفكر بالقتل .. أليس كذلك ؟

لم أجب عليه بكلمة أخرى ، ورجعت الى الصندوق بعد أن أغلقت باب البيت بصورة محكمة ، وبدون تردد ـ هذه المرة ـ رفعت غلاف الصندوق الى نهايته ، وكان

ما رأيت ، هو آخر ما يخطر على بال انسان مسكين وفقير مثلي !

★ ★

لو انني عثرت على شيء قليل من الذهب ، اذن لذهبت الى الصاغة في شارع النهر وبعته بثمن عظيم ، لو انني عثرت على أموال نقدية أو معدنية ، اذن ، لتغيرت حياتي قليلا وفي لمحة عين ، لو انني عثرت على مصباح علاء الدين السحري ، اذن ، لرأيت العفريت الذي يحقق احلامي كلها ..

أما أن أرى ما رأيت ، بعد هذا العذاب كله ، فقد كان ـ حقا ـ آخر مايمر على بالي ، وعلى الاطلاق ! ..

★ ★

حين فتحت الصندوق ، شعرت بالفزع ـ لاول وهلة ـ ورجعت الى الوراء دون ارادتي ، كدت أسقط على الارض ، لكنني تمكنت من الوقوف على قدمي بصعوبة ، ثم اقتربت من الصندوق ثانية ، ونظرت الى

محتوياته العجيبة .. لم يكن في هذا الصندوق سوى رؤوس ثلاثة من مادة لم أعرفها ، رؤوس منحوته بطريقه ذكية جدا ..

مددت يدي وأخرجت الرأس الاول ، كان التراب يغطي ملامحه تماما ، نظفته على مهل وحذر ، ثم نظرت اليه باعجاب كبير ، انه رأس رجل صارم حازم عنيف ، شعر رأسه متموج مثل نهر صاخب ، وتنتهي رقبته بشيء يشبه القلادة .

أما الرأس الثاني ، فهو اكثر صرامة وحزما وعنفا ، تخرج من بين عينيه الجاحظتين قوة غريبة ،كأنه يكاد ينطق الان ، مسحته من التراب وركنته قرب الرأس الاول .. قلت مع نفسي :

ـ كيف وصلت هذه الرؤوس الى هذا الصندوق ، وكيف وصل الى بيتي ، وكيف عرفت العصابة بهذا كله ؟ انها قصة غريبة ليس من السهل اكتشافها أبدا ..

ثم نظرت الى الرأس الثالث ..

رأس امرأة في غاية الجمال والابهة ، عينان غائمتان في بحر بعيد ، أنف رقيق انثلمت نهايته حين مسحته من التراب ، لكن القطعة التي انثلمت لم تخفف من جمال هذه المرأة مطلقا .. وبعد أن تمكنت من تنظيف الصندوق ـ من الداخل ـ أرجعت الرؤوس الثلاثة ، وبدأت افهم : انها رؤوس أثرية من قديم الزمان ، لابد انها كذلك ، ملامحها تقول انها من عصور غاية في البعد عن زماننا هذا ..

★ ★

لكن ، كيف التصرف معها ؟ ماذا افعل بها ؟ بل ماذا ستفعل بي هذه العصابة ؟ حتما سيقتلونني من أجل هذه الآثار النفيسة !

اذن ، ليس من حل أمامي سوى ابلاغ الشرطة ، وبدورها تخبر مديرية الاثار ، حتى يأتي الخبراء للتصرف بهذا الكنز الاثري العظيم الذي سأعرف قيمته فيما بعد ..

ولكن .. من الذي سيحرس الصندوق حين غيابي ؟

ليس من حل غير ابلاغ العم « خلف » صاحب المقهى وابنه حامد ، سيحرسان الصندوق أو يخبران الشرطة بينما أحرسه أنا ..

لكنني اخاف الخروج من البيت ، من يدري ، قد يكون هناك من يتربص بي هذه الساعة ، هذا اكيد .. ان العصابة تعذبت حتما حتى عرفت مكان الآثار ، فكيف ستترك عذابها يذهب سدى ؟

سمعت طرقا عنيفا على باب البيت ، ثلاث مرات متتالية ، ثم اختفى الصوت ، أخذتني الحيرة تماما ، وانا أجلس قرب الصندوق لا أعرف ماذا أفعل، وكيف اتمكن من الوصول الى رجال الشرطة او الى العم خلف وابنه حامد !

تكرر الطرق ثانية على الباب ، ثلاث مرات سريعة خائفة ثم انقطعت أيضا ، اقتربت من الباب ، ورأيت

ورقة بيضاء تحت فتحة الباب ، قرأت في سطورها كلاما أدهشني :

ـ منذ عام ويزيد ، ونحن نفتش عن هذه القطع الاثرية وليس من حق أحد أن يهدم أحلامنا في العثور عليها ، انها لنا ، وسوف نعطيك الف دينار مقابل السكوت ، ولن تخسر أنت اي شيء ، اذا أخذتها الحكومة ماذا ستربح أيها الغبي ، لاتكن عنيدا مثل خروف ، واخبرنا رأيك بسرعة ، اكتب الجواب على ورقة واتركها في مقهى خلف ، اذا كان جوابك « كلا » عليك أن تستعد للموت .

* *

ترى ، ما هذه الالغاز الكثيرة ؟ ومتى سأنتهي من هذه الورطة التي صارت تلاحقني لحظة بعد لحظة ، ماذا أقول لهم ، ولماذا ـ كما يقولون ـ اترك الورقة في مقهى العم خلف ؟ كيف سيأخذونها من هناك ؟ من الذي سيأخذها أمام الناس ؟ انها مسألة متشابكة تشبه

خيوط العنكبوت ولابد من حلها بسرعة قبل أن يحس عقلي ، المهم ، لابد من الوقوف بصلابة في وجوههم بعد أن هدموا أعصابي وراحة بالي طوال أسبوعين كاملين

خرجت من البيت بسرعة ، أركض في أزقة المحلة مثل مجنون حتى وصلت المقهى ، صرخت في وجه العم خلف :

ـ تعال معي بسرعة ياعم خلف ··

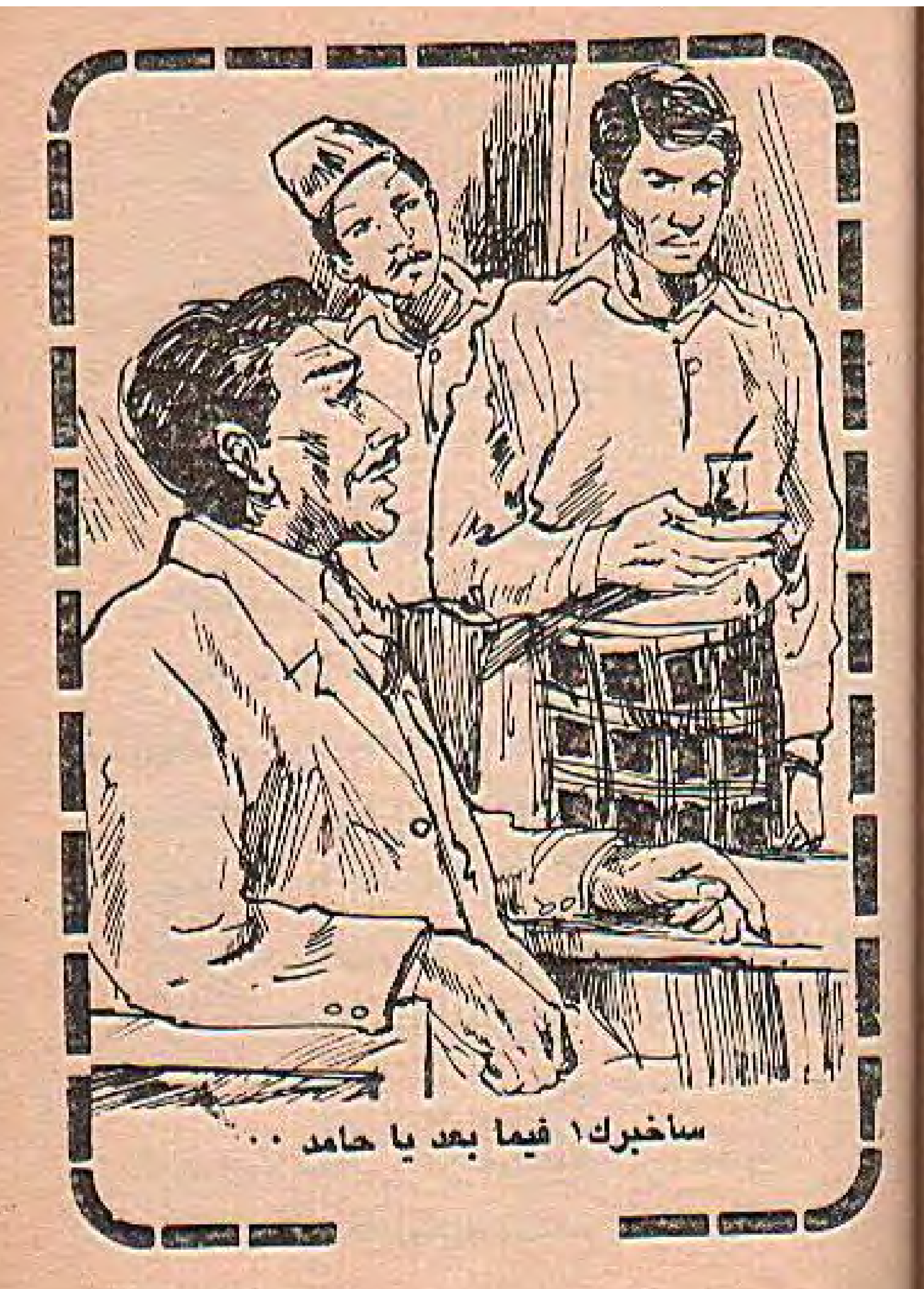
كان العم خلف وابنه حامد يشتغلان سوية في خدمة الزبائن، نظر حامد الى وجهي واستغرب حركاتي، فقال لي :

ـ ماذا جرى يا أستاذ محمد ؟

قلت له وأنا ألهث من التعب :

ـ ساخبرك فيما بعد يا حامد ·· أحتاج الان الى والدك معي ··

لكن حامد دون ارادته ، أسقط استكان الشاي الساخن على ملابسي ، وشعرت بالحرارة تسري الى



ساخبرك! فيما بعد يا حامد ··

جسدي كله ، راح يعتذر وهو يقول :

ـ المعذرة ، أنا أسف ، سأنظف ثيابك حالا ·

لكنني قلت له :

ـ اترك ثيابي الان يا حامد ، وأنت تعال معي يـ عم خلف ، أرجوك بسرعة ، لاوقت عندنا ··

★ ★

في تلك اللحظة ، بين لمحة عين هنا ولمحة عـــين هناك ، لست أدري من الذي أغلق باب المقهى المعدني ، وصار الزبائن ـ ونحن بينهم ـ يصرخون ويسالون عما جرى·· كان المقهى قد انقلب الى حالة من حالات الغضب سيما وان النور انطفأ على حين غفلة ··كان العـــم « خلف » يصرخ على ابنه حامد ، وليس من جراب ، حاولنا رفع باب المقهى ، لكننا شعرنا ان وراء البـــاب المعدني من يمسكه بقوة ·

ثم فجأة ، انطلقت رصاصة واحدة ، رصاصـــة حقيقية قاتلة ، لكن صوتها الرهيب كان كافيا لان يسكت

الجميع ويخرسهم من الخوف .. ثم جاء صوت خشن من خارج المقهى

ـ سكوت ، اذا تكلم اي واحد منكم ، سنضربكم برصاص كثيف .. سكوت تام .

★ ★

في تلك الساعة ، أيقنت ان العصابة ستأخذ الصندوق ، رحت أصرخ دون وعي مني :

ـ سيأخذون الصندوق ، امسكوهم .. انهم يسرقون اثارنا الجميلة .

لكن الرصاصة الثانية التي انطلقت صوبنا جعلت جميع الموجودين داخل المقهى ينقلبون ضدي ، بل تجرأ احدهم على اغلاق فمي بقسوة وهو يقول :

ـ اخرس ، ماذا دهاك؟ هل تريدهم أن يذبحونا؟

قال رجل أخر :

ـ هل أصابك الجنون يا هذا ؟ عن اي شيء تتحدث؟ اثار جميلة وسرقات وصندوق .. اسكت وانقذ

نفسك يا أستاذ .

★ ★

صار الحزن يأكلني وأنا أشعر بالعجز امام هذه الورطة الرهيبة التي انزلقت اليها ، ليس بامكاني أن افعل أي شيء ، كان الى جانبي العم خلف الذي كان خائفا على ابنه حامد (وهو خارج المقهى) اكثر من خوفه على نفسه (وهو داخل المقهى) .

راح يهمس في اذني :

ـ ماهذه المصيبة ؟ سيقتلون ابني ..

لكنه قبل أن يستمر في همسه وكلامه معي ، سمعنا من يقول :

ـ هس ، كافي ، ستخرجون بعد قليل ..

ثم ران الصمت داخل المقهى وخارجه ، بعد ربع ساعة رحنا نتكلم ، لكن احدا خارج المقهى لم يصرخ ولم يردعنا ، فأدركت بأنهم ذهبوا ..

رفعنا باب المقهى ، كان حامد ساقطا على الارض،

مجروحا في كتفه ويده اليسرى ، اقترب العم خلف من ابنه جزعا وهو يردد :

★ ★

ـ لقد قتلوه ، لقد قتله الكلاب ..

لكن حامد ـ والحمد لله ـ لم يكن مقتولا ، فقد نظر الى وجه أبيه وقال بصوت منهك :

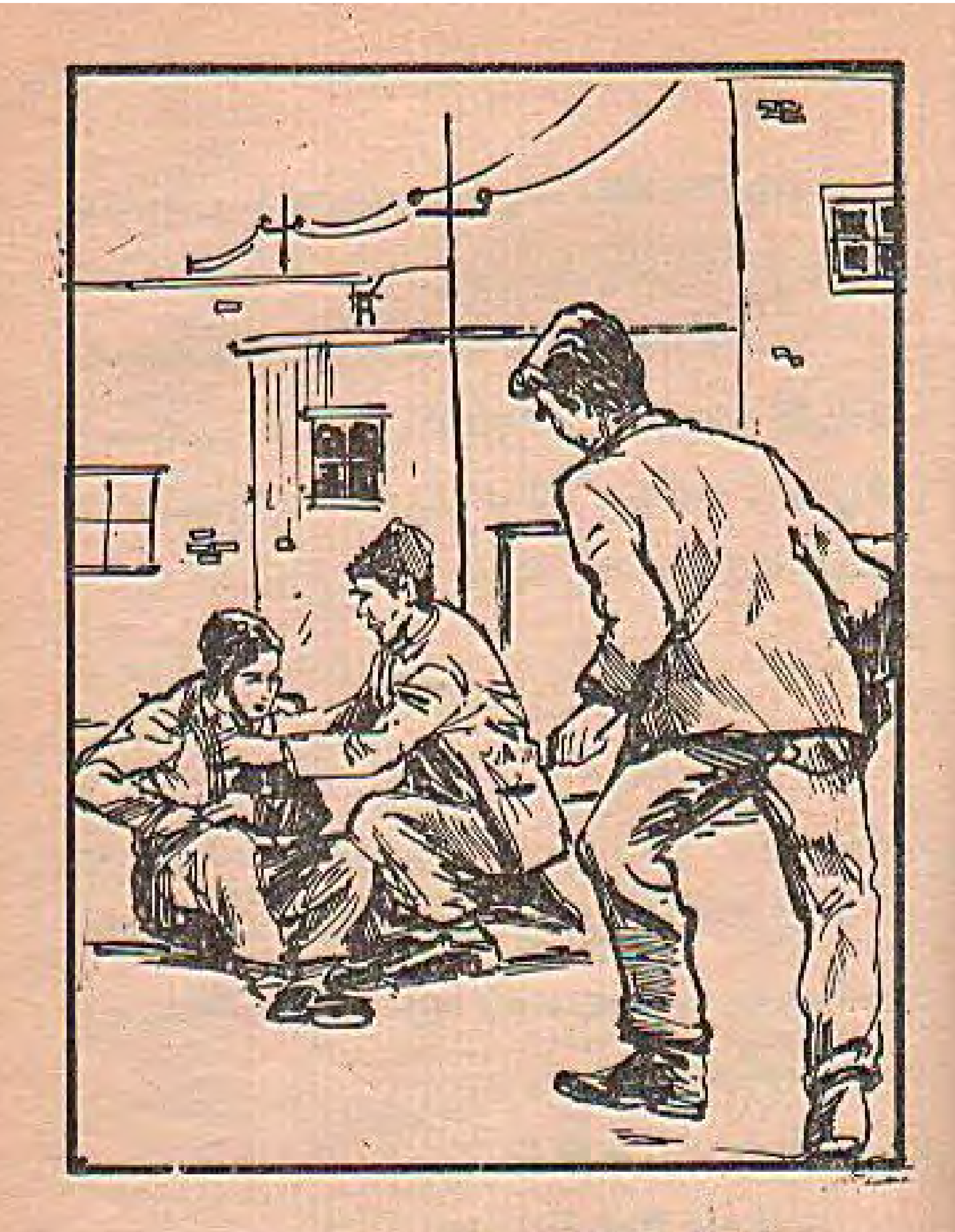
ـ انا بخير يا أبي .. لقد ضربوني وهربوا ..

راح العم خلف يسال بحداس وذعر ممزوج بالفرح على سلامة ابنه :

ـ من هم يا ولدي ، هل رأيتهم ؟ اخبرني بما جرى ..

في تلك الدقيقة ، شعرت ان السماء ستنطبق على الارض ، وانا اصرخ بالعم خلف :

ـ تعال معي ارجوك ، لابد انهم سرقوا الصندوق، هذه حيلة دبروها حتى ياخذوا الصندوق من بيتي ، تعال معي ..



راح العم خلف يسال بحماس وذعر

لكن العم خلف نظر الى وجهي بغضب كبيـــر وقـال :

ـ لعنة الله عليك يا استاذ محمد ، وعـــلى صندوقك هذا ، وعلى افكارك التي لا اعرف من ايـــن تاتي بها ، ماذا تريد منا يا اخي ؟ كاد ابني يمـــوت بسببك انت ومشاكلك الغريبة .



عندها لم يكن امامي سوى اللجوء الى الشرطة ، ذهبت اليهم ، وجاء نفر منهم الى بيتي ، لكننا مـا ان دخلنا الى فناء المنزل حتى اكتشفـــت ـ فعلا ـ ان الصندوق قد سرق من داخل البيت .. لكن الحفـرة مازالت كما هي ..

قال ضابط الشرطة :

ـ ما هذه الحفرة ؟

قلت وانا اكاد اهلك من الغضب :

ـ كان الصندوق هنا يا حضرة الضـــابط ..

ذهبت الى العم خلف صاحب المقهى أستعين به ، لكن العصابة اغلقت علينا باب المقهى .. اسال الجميع ، لقد كان في المقهى مايزيد على سبعة رجال من اهل المحلة .

ثم حكيت له ماجرى بالتفصيل ، منذ اول يوم هددوني به حتى اللحظة التي وقفنا بها امام الحفرة الخالية .. واعطيته الاوراق التي هددوني بها بالموت او اخلاء المنزل ، لكن الضابط راح يضحك وهو يسالني :

- هل انت متاكد ان اسماءهم كما تقول : دعبول وبلبل وحسون ؟ هذه ليست أسماء معقولة لمثل هذا النوع من الناس ، بل يبدو ان كل واحد منهم لا يريد أن يعرفه الثاني على هويته الصحيحة !

كان الضابط ذكيا حقا ، وبسبب كلامه تذكرت شيئا خطيرا جدا .

...ت الى الضابط وقلت له بلا تردد :

- عندما ذهبت الى المقهى ، شعرت ان « حامد » ابن العم خلف تعمد أن يترك الشاي يسقط فوق ثيابي ثم خرج من باب المقهى ، وماهي الا لحظات حتى انغلق الباب وهو خارج المقهى ، كانه على موعد مدبر مع آخرين !!

سالني الضابط بسرعة :

- لكن حامد كان مجروحا في جسده ، وانت من قال هذا الكلام قبل قليل ، اليس كذلك ؟

قلت بصوت صارم قوي ، كانني عثرت على اول السر :

- من يدري يا حضرة الضابط ، ربما تعمدت العصابة ان تضربه قليلا وتجرحه ايضا ، حتى لانشك به ابدا ، سيما وانه معروف في المحلة كلها ..لقدكنت أسال نفسي كيف كان تهديدهم يصل الى العم خلف حتى على فراشه وبين ملابس زوجته ؟ انه حامد ، ليس من أحد سواه ، اكاد اقسم على هذا يا حضـ...

الضابط .

اجاب الضابط وهو يبتسم :

ـ هذا ممكن يا أستاذ محمد ، لكن اسم حامد ليس دعبول ولا حسون ولا بلبل .. هل نسيت هذا ؟ ماذا تقول انت ؟

قلت للضابط دون تردد وبلا كثير تفكير كأنني اشاهد فيلما سينمائيا على الشاشة :

ـ ومن قال ان اسماء مثل دعبول وبلبل كانت حقيقية ؟ انا لا اريد ان اظلم حامد ، لكنني اقول ما احس به ، اشك ان يكون منهم ، وانا اتذكر طول كل واحد حتى الان ، وكان حامد في الطول نفسه !

قال الضابط :

ـ ولماذا لايكون العم خلف متورطا معهم ؟

قلت بهدوء وانا افكر بالماضي :

ـ لا اعتقد ان هذا الرجل المسكين قادر على فعل شيء خطير كهذا وبعد هذا العمر الكبير ..

★ ★

أخذني الضابط وسجل أقوالي كلمة كلمة ، ثم قال لي :

ـ سنعرف السر بأسرع وقت ممكن ..

لكنني حين خرجت ، شعرت برغبة جامحة أن أعرف الحقيقة بنفسي ، جلست في مقهى العم خلف ، لم يكن في المقهى غير ثلاثة شيوخ مسنين ، يحتسون الشاي ويدخنون النارجيلة .. كان العم خلف ينظر ـ بغضب حقيقي ـ صوب مكاني .. وحين طلبت شايا جاءني به وتركه قربي بلا احترام كأنه يريد أن يطردني من المقهى !

أن العم خلف يرى مصائبه كلها من خلال وجودي في هذه المحلة كأنني المسؤول عما يجري في هذا المكان من مشاكل !

سألته عن ابنه حامد ، فأجاب بلا اهتمام :

ـ انه مريض في البيت ، أنت تعرف هذا ، لماذا تسأل ؟



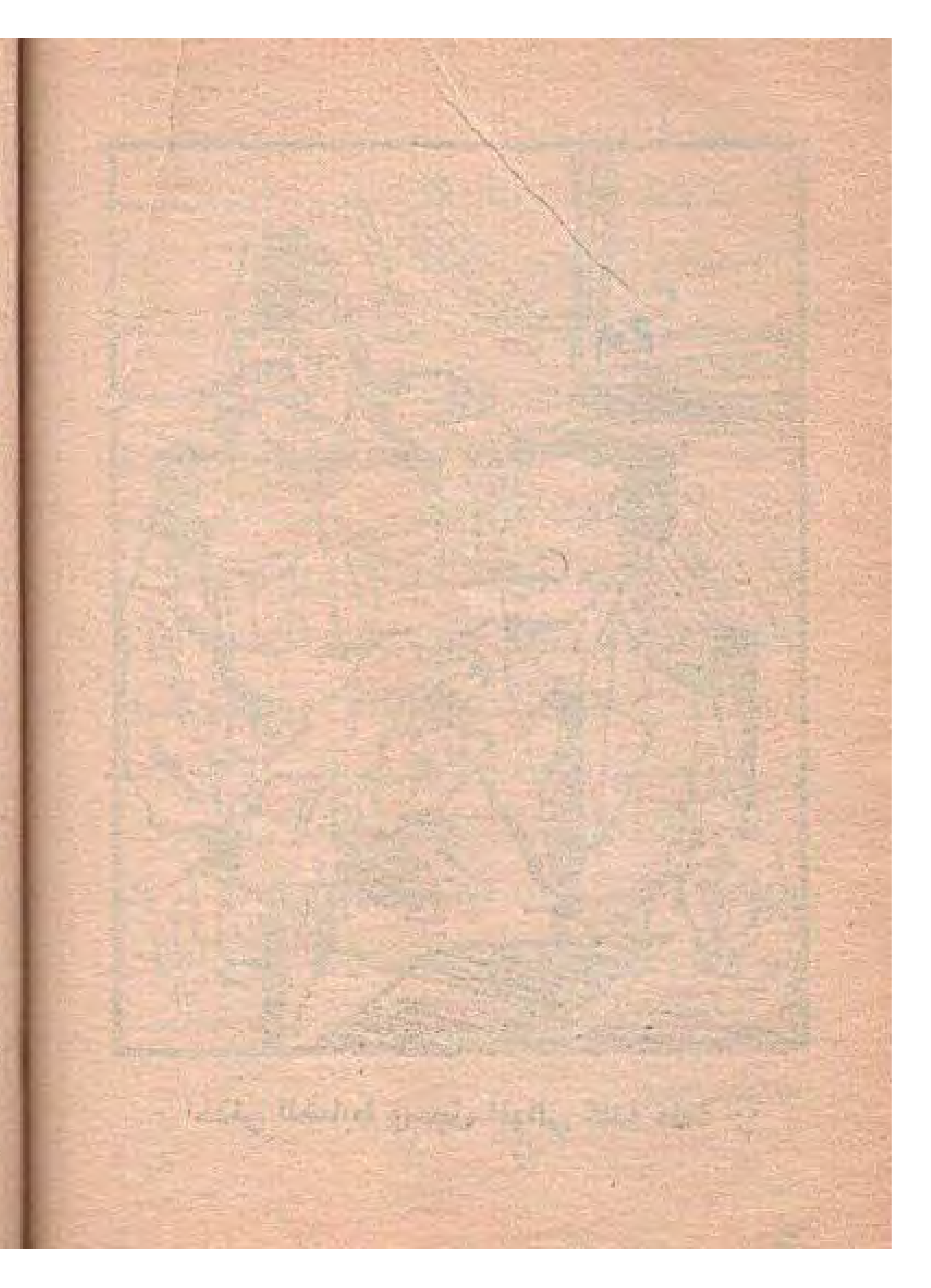
اخذني الضابط وسجل اقوالي كلمة كلمة ..

قلت له بهدوء :

- ياعم خلف ، تعال أخبرك بشيء لاتعرفه ولاتصدقه .

لكنني في الوقت نفسه قررت السكوت ، والحمد لله ان العم خلف لم يهتم بكلامي ، لهذا تركت المقهى وذهبت الى بيت العم خلف أحاول اكتشاف مايجري هناك ، لكنني نظرت الى البيت من خارجه الموحش ، لا أعرف ما أفعل .. لذلك عدت الى بيتي ، أمشي وافكر ، نظرت الى البيت المهدم والحفرة العميقة التي تركوها مفتوحة بعد أن سرقوا الاثار . وفوجئت بشيء يلمع في الحفرة .. اقتربت اكثر ، كنت أريد أن أعرف هذا الشيء الذي يشع مثل ضوء خافت ... مددت يدي ورفعت هذا الشيء الصغير ، لكنه لم يكن غير (زر) عريض من أزرار معطف أو سترة رجالية .. لست أدري لماذا تذكرت فورا ملابس حامد ابن صاحب المقهى !





أسرعت الى ضابط الشرطة ، وأعطيته (الزر) العريض وأنا اقول بانفعال :

ـ رأيت هذا في الحفرة ، أنت وحـــدك مــن يستطيع الذهاب الى بيت حامد ورؤية ملابسه يا حضرة الضابط ٠٠ اكاد أجزم اننا وصلنا الى أول الخيط ٠٠

في المساء ، كان الحزن يأكلني وأنا اتذكر العم خلف صديق والدي ، فكرت به وأنا أسمع آخـــر ماجرى ، كان حامد في مركز الشرطة للتحقيق معـه في جريمة سرقة آثار وطنية ثمينة وخطيرة كان البحث جاريا عنها منذ سنين ليست قليلة ٠٠ كان ابن المخلف قد وصل المركز بحراسة اثنين من رجال الشرطة ، بعد ان رأى الضابط الشاب ان معطف حامد قد سقطت منه « دكمة » واحدة هي التي كانت بين ايدينا فعلا ٠٠

قال الضـــابط :

ـ من أين لك هذه الخبرة البوليسية يا أستـــاذ محمد ؟

ابتسمت في وجه الضابط الشاب ، ولم اقل أي شيء ، انها مسألة بسيطة رأيتها عشرات المرات في السينما والتلفزيون ولاتحتاج الى خبرة عميقة !

جاءني العم خلف يتوسل - في مركز الشرطة - أن أنقذ ابنه من هذه الورطة ، لكنني أخبرته ان هذه المسألة اكبر مما يعتقد ، انها سرقة آثار يريدون اخراجها ويبيعها الى الاجانب ٠٠ وان ابنه حامد متورط مع عصابة تعرف اشياء كثيرة عن بلادنا وثرواتها المخبوءة تحت الارض !

في تلك الدقيقة ، خرج حامد مكبلا بالحديد ، وقد اعترف على بقية العصابة ، نظر الى وجهي وقال :

- كنت أعرف ان الجريمة لاتفيد ، لكن هؤلاء الشياطين خدعوني وقد عملت كل شيء من أجل أبي حتى لايتعب بقية عمره !

قلت له :

- لاتيأس يا حامد ، رغم كل مافعلتموه بي سنحاول الدفاع عنك لانك مخدوع فعلا ٠٠

وعرفنا ان « حامد » هو بلبل ، أما صاحبه « حسون » فهو لص قديم من لصوص الآثار كان يعمل في القاهرة وأسوان وأهرام الجيزة واستطاع الهروب من مصر كلها قبل ثلاث سنوات ، وانه سرق العديد من آثارنا العربية ، وتمكن من اخراجها الى أوربا ٠٠ أما دعبول فهو مجرد لص عادي بسيط استخدمه حسون - كما استخدم حامد - حتى ينتهي من اخذ الرؤوس

لكن المصيبة الطريفة التي وقعت فيها بعد كل الثلاثة التي كانت في منزلي !

هذا العذاب الذي احتملته أسبوعين رهيبين ، هي أعتراف حسون ، الذي قال لهم ان بيتي كله - بيت الغرائب هذا - وبعض البيوت القليلة المجاورة انما تحتوي على كنز من الآثار المطمورة !٠

★ ★

وبين ليلة وضحاها ، تهدم بيتي العزيز ، وضاع

من بين يدي ، لكن هذه المرة راح بيتي بموافقتي انا ..
وخرجت من محلتي غنيا جدا بعد ان وهبتني مديرية الاثار الاف الدنانير هدية على جهودي وثمنا لمنزل الغرائب الذي بدأ الحفر فيه منذ خروجي !

لكنني في المنزل الجديد ، لم اعد احلم بآثار جديدة او رؤوس منحوتة تزداد بها اموالي ، فانا اسكن الطابق الخامس من عمارة لا اعرف حتى الان من يسكن في طابقها الاول .

* *

هل تراكم تضحكون ؟ انها الحقيقة ، ومن لايصدق ، عليه ان يسال عن الاستاذ محمد مدرس اللغة العربية في مدرسة الصفاء الابتدائية ، او ياتي معي الى محلة الطاطران قرب منطقة ((أبو سيفين)) حتى يرى بنفسه بقية الاثار التي عثروا عليها في منزلي انا ، منزل الغرائب كما يسمونه ابناء المحلة .

وعلى اية حال ، انا بانتظاركم حتى احكي لكم قصة اخرى ..

